الدين والحياة

الأستاذ حامد محمود الزفرى

أشرنا فى المقال السابق إلى أن الدين له توجيهان بحسب الحياة الإنسانية توجيه ذاتى باطنى . وهو قيادة للروح وتصفية للنفس وصقل للذات وعروج بالأنا الوجودى إلى آفاق سامية ، ومعارف عالية . ومقام كريم . ووسيلة ذلك عبادات وفرائض أقرها الإلأسلام وقرر مزاولتها فى صور متعددة بعضها مرتبط بالحركة الزمنية كالصلاة أو المكانة التاريخية كحج الكعبة . أو الصلة الاجتماعية كالزكاة أو التزكية النفسية وتشبهها بالملأ الأعلى كالصوم وقد امتدح الطبع السليم هذه القيادة الذاتية ، وصحت بها الفطرة القويمة ، وغاية هذه الوسائل التعبدية . الوقوف فى مقام التحقيق . والإطمئنان القلبى الوفيق . وبهذا يصير علم التوحيد حقيقة حية وحركة عملية . وتصح عقيدة المسلم ويذوق حلاوة الإيمان ، ولقد كان هذا الجانب من الدين له أهمية قصوى بحيث نال من جهد الفقهاء الشىء الكثير مع أنه لم يبلغ حديثه فى القرآن الكريم سوى مائة وخمسين آية كما نص على ذلك المرحوم أستاذنا . طنطاوى جوهرى فى كتابه (التاج المرصع . .) وهذه عبادات فى صورها آداب فى معناها وحقيقتها . وهى فى الحقيقة ترجع إلى نظام الدنيا بالذات وإلى الدين بالتبع كما نص عليه حجة الإسلام الإمام الغزالى . وكما أن الباطن يكشف الحقيقة الوجودية الكبرى بوسائل تعبدية ويصل من وراءها إلى غايات سعيدة . وإشرقات مضيئة وقبوضات كاشفة ، تتمتع بها الذات ، وتصقل النفس . فكذلك ظاهرنا من حسن عقل . له توجيه وقيادة دينية . تقف بالإنسان على مشارف السمو والرفعة . والتقدم والنعمة . وله وسائل يصل بها إلى التمتع واللذة ، والعدالة والحكمة ، والإخاء والمعرفة ولما كانت هذه النوافذ الإنسانية الظاهرة إنما هى أدوات ووسائل . ورسل ووسائط

ولها طرق وسبل إذا هى سارت فيها حققت جوها الوجودى ونالت حظها الإنسانى ولما كانت اجتماعية ومتشابكة مع الآخرين . وليست ذاتية باطنية . بل جماعية ظاهرية لهذا عنى . . القرآن الكريم ببيان الوسائل الفعالة ، والسبل المنتجة لتحقيق السعادة ، والرفاهية . للفرد والمجتمع والإنسانية .

ونحن إذا رحنا ننظر أمرنا فى ظاهر الحياة . . والمرتبطة بالآخرين مثلا . كتنظيم الحكم . أو سياسة الجماعة . وهى الحال التى يرتبط بها أفراد المجتمع وتنظم أمورهم داخلها . والتى يسير فى خطها الإمام أو الحاكم دون استئثار أو استبداد . بل هى مشاركة ومسئولية عامة متبادلة بين الأفراد والحاكم . وهما (الأفراد والحاكم) مرتبطان بخيط من الرقابة الإلهية التى أضاءت لهم الطريق . وأشعلت السبيل وجعلت الأمر شورى .

ومن حيث إن الأمر العام أو الدستور للجماعة أو القانون للمجتمع . ومن حيث أنهم هم الذين سيعملو فى دائرته . ابتغاء صالحهم وإرادة إسعادهم . ولهم الغنم وعليهم الغرم . ولأن المؤمنين بخير ما تناصحوا . ولأن المسئولية فيما ينتظم الجماعة لا تقع على فرد أو قبيلة وإنما هى عليهم جميعاً . الخ هذه الأسباب الجذرية . لما كان الأمر كذلك فقد جعل الأمر فيما يخصهم جميعاً يقوم على أساس طبيعى فطرى هو إعطاء كل فرد حق المشاركة وإبداء الرأى فيما سيعود عليه والشورى فى الإسلام أو سياسة الحكم الدينى هى الحرية الطبيعية . فقال تعالى : «وأمرهم شورى بينهم» .. «وشاورهم فى الأمر» ولقد ضرب الرسول عليه السلام الأمثلة العملية والسلوك السوى لتحقيق ذلك فى حياته بما لا يسعه مقال .

أما الشكل أو الصورة التى تتم بها الشورى . أو الطريقة الموصلة لهذه الغاية فمتروكة لظروفنا الزمنية والتقدمية .

والناس سواسية فى تولى أمر المسلمين يقوم بذمتهم أدناهم . فليست الخلافة

أو الإمامة فى قريش : حتى تكون عصبية قبلية . وليست فى بنى هاشم حتى تكون وراثية ملكية . بل الأمر مسئولية مشتركة يقوم بتنفيذ أغراض الجماعة المرتبطة بكتاب خالد واحد عنهم ، ليس هو بأحسن منهم نسباً أو أكثرهم مالا أو أقواهم بطشاً . أو أشدهم مكراً وخداعاً . وليس هو بأحكمهم إلا بمقدار حكم الجماعة عليه فى الصلاحية وكفاية الأداء . وقدرة العمل . وهم رغم ذلك إن أساء عزلوه وإن أعوج قوموه . فشكل الحكم فى الإسلام : كأنه جمهورى انتخابى . والشعب كله مسئول عن تحقيق هذا الضرب من العدالة السياسية وصلاحية المنفذ .

والأصل فى ذلك ما نراه من اندفاع الفرد نحو الآخرين وحبه البقاء معهم ، ونموه بهم ، وتقدمه بهم . فحب الاجتماع غريزة إنسانية واستجابة طبيعية لوجود الإنسان واستعداداته البقائية . واندفاعاته المدنية والإرتقائية .

ولكن الإجتماع والإندفاع إليه بطريقة عشوائية ، أو سلوك فيه التواء أو جبروت وعنجهية أو استبداد وملوكية . كل ذلك ونحوه مما قام به . الأكاسرة والقياصرة . والملوك والطغاة ، والزعماء والجبابرة . من الذين غرتهم سلطة الحكم . واستحوذت عليهم أنانية الذات ، ولقد اغتنم كثير من الظالمين هذه الفرصة (طبيعة الإجتماع) فراح يستغلها لحسابه . واستعمل السوط وأشاع الإرهاب . ليبقى على نفسه ، وليحمى بقاءه . والنتائج التاريخية لمثل هذا السلوك غير مجهولة لدى القارىء .

ولما كان الدين فى الحقيقة تنظيما للإستجابات الطبيعية . ودلالة الإنسان على خير الطرق ، وأقوم السبل . لما يؤدى بالإنسانية إلى خيرها وإسعادها لم يكن غريباً عليه والحال كذلك أن ينظم تلك الاستجابة الاجتماعية فى المجال السياسى كما أشرنا .

وإذا نحن عرفنا أن الحركة الأوربية نحو الحرية ، التى أشعلتها فرنسا فى القرن السابع عشر . وانطلقت أشعتها تضىء مدن أوربا ، وتنير الطريق لشعوبها . فى هذه الحرب بين الشعوب والملوك والنبلاء والقساوسة . نجد أموراً لا بد لنا من الإشارة إليها لنأخذ منها العبرة ونتعمق المغزى ونلمس الفروق بين الحريات .

فأوربا التى كان يتحكم فيها عائلات (بوربون) ومن على شا كلتهم من قياصرة وأباطرة . يسندهم فى الاستبداد نبلاء وأثرياء وتجار عظماء ، والغنيمة مشتركة بين هؤلاء وبين من بيدهم مفاتيح الجنان ، وتسطر أقلامهم . . صكوك الغفران .

ولقد كان عرق الشعب يتحول إلى روائح عطرية يستحم بها الملوك . وماء معمودية يغمس فيها القساوسة أيديهم . وليس ثمة حرية أو رأى أو شورى وعلى هذا الضرب من أهدار حق الجماعة . والاستبداد بأمرها سارت أوربا ، وتقدم العقل خطوات نحو تقدم الوسائل . وجدت طبقات امتدت أعينها إلى ما يتمتع به الحكام والبابوات . وكان ما كان . واندلعت نيران الثورة . تنادى بالحرية والمساواة والإخاء .

ولكن ياترى . الحرية لمن . . ؟ للثائر . أو الحاكم . أو الشعب . أو الإنسانية جمعاء ؟ .

ومساواة من بمن . . ؟ أمساواة الأفراد لبعضهم ؟ أو مساواتهم بالحاكم ؟ أو المساواة العامة لبنى البشر . ؟

والإخاء . هل هو بين الأوربيين وبين بعضهم ؟ أو إخاء إنسانى عام ؟

لقد كان المفروض أن يكون هذا الشعار الفرنسى الثائر عاما وإنسانيا شاملا ، ولكن سلوك الثوار أنفسهم والأوربيين جميعهم . قد حدد معانى هذا الشعار بما لا يدع مجالا للخوض فيه بأكثر من الإشارة إلى التعصب للجنس الأوربى . والاستعمار لبقية شعوب العالم . ومحاولة محو الثقافات والجهود والتواريخ لأمم غلبت على أمرها ووقعت فريسة لهذا الوحش الأبيض .

وإذن فالثورة الأوربية الحديثة إنما كانت أسبابها الهامة حركة ذاتية ، وأغراض لا إنسانية ، حتى ولو ادعت أن شعارها الحرية والإخاء والمساواة ، على الإطلاق :

ويكون من المسلم به أن كراهية أوربا للكنيسة أمر طبيعى وبالتالى فالمسيحية دعوة روحية لم تقم لها حكومة سياسية . ولم تعرف لها فى أناجيلها الموجودة بين أيدينا

خطة تنظيمية عامة . للأفراد والجماعات والبشرية فى منافذها الظاهرة . وإن هى سمت لخلاصه الباطنى . وتاريخها دليل حتى على أن سلوكها كان أخلاقياً فقط وأحياء وتجديدا لرسالة موسى ونفوس بنى إسرائيل فقد ظل المسيح يدعوهم إلى الأخلاق وحسن المعاملة والحد من الأنانية ، والانغماس فى المادية ، التى هوت بهم إلى سحيق الفجور وغور الشرور وكما كانت اليهودية مادية متطرفة فالمسيحية روحية مترهبة ورغم ذلك كله فلم تقم لدعوة المسيح فى حياته حكومة ذات نظام وأسلوب كما كان للاسلام أيام محمد عليه السلام والخلافة الرشيدة . بل إن الدولة الرومانية اعتنقها بعد موت المسيح بزمن بعيد واستغلتها لأغراض سياسية . وهذا التاريخ المسيحية فى حياتها الأولى وللقساوسة فى إبان الثورة الفرنسية هو الذى دفع الأوربيين والمسيحيين عامة إلى إطلاق الكلمة المعهودة إن الدين شىء بين العبد وربه . وهو صحيح بالنسبة المسيحية وتاريخ رجالها فى أوربا .

ولما كان الإسلام دعوة عالمية خالدة وجهوداً بشرية لذات الدعوات الإلهية . وخطة أخيرة لسير المجتمع البشرى بما يتفق وطبيعة الخلق والتطور ، وقد أسست دولته فى أول أمرها على تنظيم الاستجابة الإنسانية للحياة . وهى استجابات باطنية . وظاهرية فكان والحال هكذا حديث القرآن الكريم عاما وتنظيما شاملا .

والإسلام ليس ثورة أرضية تطلق الشعارات لتحمى وجودها وتعمل لحسابها . كما فعلت الثورات الأوربية غربية وشرقية . وليس دعوة أخلاقية منفصلة عن المجال العملى . حتى يكون الدين أمراً بين العبد وربه . بل هو دين الحياة بكل ما تحمل من دلالة وفى كل مجال . ظاهر وباطن : اقتصادى وسياسى واجتماعى . وهو تنمية للشعور الوجودى ودفع للقوى واستجابات فى خط الأمان رغبة إسعاد الإنسان ورفاهيته . وهو بهذا المعنى له رجال ودعاة وله أتباع ومخلصون . وله فكر وعلم . واقتصاد وسياسة . ولم نر فى تاريخ الإنسانية جمعاء مثل ما رأينا للاسلام فى كل مناحى الوجود ؟

يتبع